تأمل الفرق بين

مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة

في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة

كتبها
رجب محمود إبراهيم بخيت

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠٢-٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مطالب الظالمين

في الدنيا والآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٢١٨٢ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-246-1

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المبدئ المعيد، العزيز الحميد، ذي العفو الواسع والعقاب الشديد، أحمده وهو أهل الحمد والتحميد، والشكر لديه من أسباب المزيد، سبحانه وتعالى، قسم الخلق قسمين وجعل لهم منزلتين، فريق في الجنة وفريق في السعير، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن وفقه للخير فهو الرشيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)

أما بعد.. فإن موضوع الظلم والحديث عن الظالمين من الموضوعات ذات الأثر البالغ في نفوس المسلمين لاسيما حينما يكون الحديث عن مطالبهم ومآلهم في الدنيا والآخرة.

وحينما أقدمت على هذا الأمر بإشارة من الشيخ يسري صاحب (دار الإيمان) وكنت أظنه موضوعًا هينًا، ولكن سرعان ما تغيرت الظنون وتبددت الأوهام حينما شرعت في القراءة والإعداد لهذا الموضوع، فوجدتني أمام خضم هائل من التصورات للموضوع، ولولا توفيق الله عزَّ وجلَّ ما خرج الموضوع بهذه الكيفية.

ولما أردت تقسيم الموضوع وتبويبه وجدت أن مطالب الظالمين في الدنيا متشعبة وكثيرة تندرج تحت لواء كل شيء جميل في الحياة، وهي وإن كانت مطالب لجميع من يعيش على وجه البسيطة فكان الاختلاف في كيفية التعامل والتعاطي مع هذه المطالب.

وأما مطالب الآخرة: فقد اعتمدت على ما جاء في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن مطالب لكل ظالم، واعتُمِد في توضيح وشرح كل مطلب على كتب التفاسير وكان جلُّ الاعتماد على (تفسير الحافظ ابن كثير) لبساطته وسهولة معانيه وألفاظه، و(تفسير الظلال) لسيد قطب والذي يتميز بوصول تفسيراته إلى القلب مباشرة في أسلوب بلاغي عذب وهو المؤهل للحديث عن الظلم بصفة عامة، كيف لا وهو الذي نال قسطًا وافرًا من الظلم فجاءت تفسيراته قريبة من كل قلب ينبض بإيمان.

واستعنت ببعض كتب التفاسير الأخرى في بعض المواضع التي وجدت أن ما لدي من تفسيرات لا تشفي غليلي كقارئ قبل أن أكون كاتبًا.

وقبل النهاية وجدت أنه لابد من وجود بعض الصفحات أوضح فيها أن ما حاق بكل ظالم في دنياه وآخرته إنما كان بما كسبت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد حتى تتم الفائدة.

وأخيرًا فإن كنت قد وفقت في شيء فبعون وتوفيق من الله وحده، والذي أسأله أن يجعل ذلك في ميزاني يوم العرض عليه، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان وحسبي أني اجتهدت. ولله الحمد في الأولى والآخرة.

رجب محمود إبراهيم بخيت

تمهيد

قال ابن قدامة المقدسي: الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا والتزهيد فيها وضرب الأمثال لها كثيرة كقوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .... ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: ١٤-١٥).

وقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (سورة يونس: ٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ (سورة الحديد: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة الزخرف: ٣٥).

وقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (سورة النجم: ٢٩-٣٠).

وأما الأحاديث: ففي الصحيحين من رواية المسور بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع**»، وفي حديث آخر: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1].

---

(١) رواه مسلم.

وفي حديث آخر: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»**(١).

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**(٢).

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابًا طويلاً فيه:

أما بعد... فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين؛ فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها. تذل من أعزها وتفقر من جمعها كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عزَّ وجلَّ عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن ما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا ﷺ مفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه.

زواها الله عن الصالحين اختيارًا وبسطها لأعدائه اغترارًا، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه حجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خُير له فيها إلا نقص عقله وعجز رأيه.

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.

ومن أحسن ما قيل: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

والمعنى: أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء ـ ليس لها أسنان ـ عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك السابقين، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر؟!

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء ـ بياض شعر الرأس يخالط سواده ـ زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلق فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتقول: يارب أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها**».

وقال عيسى عليه السلام: «**الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها**».

وقيل: «مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله».

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم»[(١)].

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩).

وروي عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا حديث عهد بريف وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم، قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: كما ترى، قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئًا، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا، قال: فأوردهم ماءً ورياضًا خضرًا فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليس كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، قال: فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فنزل عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل»[(١)].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا.

مطالب الظالمين في الآخرة

لعباد الدنيا مطالب وأماني وغايات، ففي الدنيا أعز أمانيهم أن يكونوا مخلدين فيها، وجمع المال والوصول إلى الجاه والسلطان وتلبية الشهوة والرغبة والبحث عن السعادة والملذات، أكل الطعام، شرب الشراب، يأكلون ليعيشوا يرتعون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.

ولكن انظر إلى حالهم في الآخرة وقد قاسوا من دواهي الآخرة ما قاسوا فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أبنائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالظالمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البُراء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في حفر الجحيم، ويقولون له: ذق إنك أنت العزيز الكريم، فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم فيها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك اخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو خرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون.

فعند ذلك يفطنون ،وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار. طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من جنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

أما عن سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي يعصي بها العبد، بعضها فوق بعض، الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية[1].

فانظر إلى الهاوية وعمقها فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا ومطالبها فكما لا ينتهي إرب من الدنيا إلا إلى إرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية ولا تنتهي مطالب الظالمين في الآخرة، وأعلاها الفكاك من النار وأدناها جرعة من الماء.

ولْنَرَ معًا مطالب الظالمين فى الآخرة ولنقارن بينها وبين مطالبهم في الحياة الدنيا، ولْنَرَ هوان الدنيا وما بها من ملذات ومغريات.

(١) الغزالي: «مكاشفة القلوب» (ص ١٦٩ ـ ١٧٠).

المطلب الأول

طلب الفداء

المطلب الأول

طلب الفداء

قال تعالى: ﴿ إن الَّذينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٣٦-٣٧).

يا للخسة والمهانة فبعد أن كانت لهم في الدنيا الأموال الطائلة التي خولها الله لهم وأبوا أن ينفقوها في سبيل الله ها هم اليوم لا يريدون أن يفتدوا بأموالهم فقط بل إنهم يريدون أن يفتدوا بما في الأرض جميعًا ومثله معه وكانوا أحوج إلى القليل من ذلك لينفقوه في طاعة الله عزَّ وجلَّ، فأين أموال الأغنياء وأين جاه وسلطان المتكبرين المتجبرين؟.

أين أموال من كانت: ﴿ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ (سورة القصص: ٧٦). أين أمواله وعلمه ومكانته هل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟!.

أين أموال أم جميل بنت حرب التي كانت تعيِّر رسول الله ﷺ بفقره وتتطاول عليه بأموالها وكنوزها هل نفعتها تلك الأموال وهذه الكنوز؟!

أين أموال وأولاد أبي لهب؟! الذي ظن أن ماله وولده سينجيه من العذاب وكان يعيِّر رسول الله ﷺ بقلة الولد، وظل يردد في قريش صار محمد أبتر - لما مات ابنه ﷺ - فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر: ٣)، وكان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقًا - من العذاب لمن كفر وصد عن سبيل الله - فإني افتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فهل هم مغنون عنه من عذاب الله من شيء؟!

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤).

أين أموال العاص بن وائل الذي أخذ أموال خباب بن الأرت ﷺ، فلما طلبها خباب من العاص قال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال الخباب: لا أكفر حتى تموت ثم تبعث، فقال العاص: دعني أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولدًا فأقضيك! فنزلت فيه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (سورة مريم: ٧٧-٨٠)، فهل نفعته أمواله وأولاده من الله شيئًا حينما وقف بين يدي الله ذليلاً فردًا؟

بل أين مُلك فرعون وجناته وعيونه الذي كان ينادي في قومه: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (سورة الزخرف: ٥١)، فهل نفعه ملكه وجناته وعيونه؟ وهل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟

فكيف بهم وقد اسودت وجوههم أشد سوادًا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، وهذا هو بعض جملة أحوالهم!!.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ويتقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة ولا محيص له ولا مناص ولهذا قال: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: موجع.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ (سورة الحج: ٢٢). فلا يزالون يريدون أن يخرجوا مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[١].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا بن آدم كيف وجدت مضجعك من النار؟ فيقول: شر مضجع! فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ فيقول: نعم يارب! فيقول الله تعالى: كذبت، قد سألتك اقل من ذلك فلم تفعل، فيُؤمر به إلى النار»**[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: «وأصل الكلام: لو أن لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومعه مثله..... دل على تعجيل اليأس من الافتداء إليهم ولو بمضاعفة ما في الأرض»[٣].

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض: هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعًا، ولكن السياق يفترض لهم ما فوق الخيال في عالم الافتراض فيفترض أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص٥٥).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٩).

وذلك لينجوا به من عذاب يوم القيامة، ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم.

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات . . . منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه . . . ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به. ومنظرهم وهم مخيبوا الطلب غير مقبولي الرجاء . . . ومنظرهم وهم يدخلون النار . . . ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها . . . ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . . . ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك[1]!

---

(١) «الظلال» (جـ٢، ص٨٨٢).

قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (سورة الرعد: ١٨).

قال القرطبي: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أي: لم يجيبوا إلى الإيمان به، ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي: من الأموال، ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم. ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة، ونظير ذلك في آل عمران: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ (سورة آل عمران: ٩١).

قال القرطبي: ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: مسكنهم ومقامهم، ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي: الفراش الذي مهدوا لأنفسهم[1].

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي: من مات فلن يُقبل منه خير أبـدًا ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها[2].

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٥، ص١٠٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ١، ص٢٨٠).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

يخبر الله تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (سورة غافر: ٥٢). وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا ينجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (سورة التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧).

وقال ها هنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ أي: حطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨) [١].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾:
قال سيد قطب: والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ولكنهما لا يغنيان شيئا في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه لأنه لا خلاف لميعاد الله وهم فيه ﴿ وَقُودُ النَّارِ ﴾.. بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص الإنسان ومميزاته ويصورهم في صورة الحطب والخشب وساء... ﴿ وَقُودُ النَّارِ ﴾ لا! بل إن الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغني شيئا في الدنيا[٢].

---

(١) «ابن كثير» تفسير (جـ١، ص ٣٤٩).
(٢) «في ظلال القرآن الكريم» (جـ١، ص٣٧٢)

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٤٧-٤٨).

أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه﴿ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا به يستهزئون[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ إنه الهول الملفوف في ثنايا التعبير الرهيب. فلو أن لهؤلاء الظالمين ـ الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم ـ لو أن لهؤلاء ﴿ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ مما يحرصون عليه وينأون عن الاسلام اعتزازًا به. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة.

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه. لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف . . . فهو الله، الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف مالا يتوقعون! هكذا بلا تعريف ولا تحديد!.

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٥٧)

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذه كذلك تزيد الموقف سوءًا. حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير وهم في ذلك الموقف الأليم الرعيب[1].

فأين الظالمون في الدنيا المستهزئون بعباد الله الصالحين؟ أين حمزة البسيوني الذي تجرأ على الله وكان يقول للدعاة الصالحين ـ حينما كانوا يخوفونه بالله من شدة تعذيبه لهم ـ: ائتوني بربكم أضعه في الحديد؟! بل أين الذين كانوا يستهزئون بالأنبياء والرسل ويتخذونهم سخريًا؟! فهل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون؟ وهل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعد والوعيد؟ نعم! بل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ولا يتوقعون!!!.

هذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كُورت، والجبال قد سُيرت، والعشار قد عُطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت. قد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف على كثرة معانيها: تُوضع الموازين وتُنشر الدواوين وبُرزت الجحيم وأُغلي الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسُعرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان؛ فيومئذ: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤). أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره.

قال ابن عباس ﷺ: «**يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يعز بعضهم عن بعض بعد ذلك**».

---

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٣٠٥٦)

يقول تعالى: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (سورة عبس:٣٧)، وكقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (سورة لقمان:٣٣)، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (سورة فاطر:١٨)، وكقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (سورة المؤمنون:١٠١)، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (سورة عبس: ٣٤-٣٧).

يقول سيد قطب: إن الناس في همٍّ شاغل لا يدع لأحد منهم أن يلتفت خارج نفسه ولا يجد فسحه في شعوره لغيره: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (سورة المعارج: ١٠)، فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ (سورة المعارج:١١)، كأنما عمدًا وقصدًا! ولكن لكل منهم همه ولكل ضمير منهم شغله، فلا يهجس في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ولا أن يسأله عونه فالكرب يلف الجميع والهول يغشى الجميع فما بال ﴿ الْمُجْرِمُ ﴾ (سورة المعارج:١١). إن الهول ليأخذ بحسه وإن الرعب ليذهب بنفسه وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ويناضل عنهم ويعيش لهم . . . ببنيه، وزوجه، وأخيه، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه. بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعًا ثم ينجيه . . وهي صورة للَّهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات! صورة مبطنة بالهول معمورة بالكرب موشاة بالفزع ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحى[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص٣٦٩٧).

وبينما المجرم في هذه الحال يتمنى ذلك المحال يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة أمل أو كل حديث خادع من النفس كما يسمع الملأ جميعًا حقيقة الموقف وما يجري فيه.

﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة الحديد:١٥) أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه.

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم، ﴿هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير[١].

لقد كنتم في الدنيا في سعة من العيش منهمكين في الشهوات متمتعين بها متمكنين منها لترامي طباعهم إليها فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف، وعدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شدة الألم لرقة أجسامهم المهيئة للترف بتعودها الراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها[٢].

فيا أخي.. لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربك، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور.

أخي.. إن الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها، فأي ساعة مرت على من مضى وأي ساعة بقيت علينا؟

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٣١٠).
(٢) «نظم الدرر» (جـ١٩، ص ٢١٣).

أخي . . إن الآمـال تطوى، والأعمـار تفنى، والأبدان تحت التـراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البـريد، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

أخي . . اعمل مـا وجدت سبيـلاً للعمل، وما دمت في فـسحة ومهل، ومـهد المضطجع، ووطئ لذلك المصرع:

فـيـا هذا سـتـرحل عن قـريـب ■★■ إلى قـوم كـلامـهم السكوت[1]

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص: ٤٢٩).

المطلب الثاني

طلب العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات

المطلب الثاني

طلب العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات

قال رسول الله ﷺ : «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه».

فانظر إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه، ومهما تشككت في شدة العذاب بالنار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به، واعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها، وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه، وقد ورد في بعض الأخبار: أن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا** ﴾ (سورة النبأ: ٢١-٢٦).

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ **جَزَاءً وِفَاقًا** ﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملون بها في الدنيا[١].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** ﴾ (سورة النبأ: ٢٧-٢٨) .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٤٦٥).

فإن ذلك أصل إصـرارهم على الكفر، وهما أصلان: عَـدَمي وهو إنكار البعث والآخر وجودي وهو نسبتهم لرسـول الله ﷺ والقرآن للكذب فعوقبوا على الأصل العدمي بعـقاب عـدمي وهو حرمانـهم من البرد والشراب، وعلـى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمر على جراحهم[1].

وقال تعالى عن أصـحاب الشمال: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (سورة الواقعة: ٤٢-٤٥).

فجازاهم بطعام كانت تأنف منه البهـائم في دار الدنيا وهو الزقوم: الشجرة المنتنة البشعة المنـظر يملئون منه البطون، ويشربون عليه من الحميـم، الذي ضُوعف احماؤه فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين، جزاءً وفاقًا، وعندما يرى أهل النار من الظالمين في الدنيا مـا فيها من أهوال ومـا ذاقوه من عذاب وما نزل بهم مـن خسوف الأهوال فعند ذلك يطلبون العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات.

قال محمد بن كعب: لأهل النار خمـس دعوات يجيبهم الله عزَّ وجلَّ في أربعة فإذا كانت الخـامسة لم يتكلموا بعـدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، فيقول الله تعالى مـجيبًا لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (سورة السجدة: ١٢)، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٤).

فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (سورة فاطر: ٣٧).

---

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٣٠-٣٨).

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (سورة المؤمنون:١٠٦-١٠٧)، فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون:١٠٨). فلا يتكلمون بعدها أبدًا، وذلك غاية شدة العذاب.

قال مالك بن أنس ﷺ: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (سورة ابراهيم:٢١)، قال: صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة، ثم قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾(سورة الأنعام: ٢٧-٢٨).

يذكر الله تعالى حال الكفار إذ وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال قالوا: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحًا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا ﴾ أي: لو تراهم، ﴿ وُقِفُوا ﴾ ماض لفظًا والمعنى به الاستقبال أي: إذ توقفون وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره، ﴿ فَقَالُوا ﴾ وعطف عليه بالفاء المفيدة للتعقيب لأن ما شاهدوه من الهول قد علموا أنه جزاء تكذيبهم بإلهام أوقعه الله في قلوبهم أو بإخبار ملائكة العذاب فعجلوا فتمنوا أن يرجعوا.

وحرف النداء في قوله: ﴿ يَا لَيْتَنَا ﴾ مستعمل في التحسر لأن النداء يقتضي بُعد المنادى فاستعمل في التحسر لأن المتمنَّى صار بعيدًا عنهم أي: غير مفيد لهم كقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر: ٥٦)[(١)].

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾فإنهم ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة إلى الإيمان بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار[(٢)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٥).

(٢) ابن كثير «تفسير القرآن» (جـ٢، ص١٣١).

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه وذلك أنهم كان يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم . . .

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ رُبما يودُّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ (سورة الحجر: ٢).

وقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكونوا بمنزلة السليم الجدلي في المناظرة، أي: أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه وهو التكذيب وإنكار البعث وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير وإنما ما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من هذا الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.

وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لإقرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره؛ فالانفعال به نسبة انفعال العجماوات، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ تذييل لما قبله أي: أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإن الكذب سجيتهم[١].

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٦، ١٨٧).

يقول سيد قطب: إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . . مشهد الاستخزاء والندامة والخزي والحسرة . . . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض!

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ لو ترى ذلك المشهد! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي! ولا يملكون الجدال والمغالطة!

لو ترى لرأيت ما يهول! ولرأيتهم يقولون: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهم يعلمون الآن أنها كانت ﴿آيَاتِ رَبِّنَا ﴾! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات وعندئذ سيكونون من المؤمنين! . ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون!

على أنهم إنما يجهلون جبلتهم فهي جبلة لا تؤمن وقولهم هذا عن أنفسهم: أنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل أو أنهم ما يقولون قولتهم هذه إلا لأنه تكشف لهم سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون وأنهم ناجون وأنهم مفلحون.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ إن الله يعلم طبيعتهم ويعلم إصرارهم على باطلهم ويعلم أن رجفة الموقف الرهيب الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود . . .

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب![1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص١٠٦٧، ١٠٦٨).

قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٣).

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أي: يوم القيامة وما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار.

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا.

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي: أنهم لم يعترفوا بأن ما جاءت به رسل الله عزَّ وجلَّ أنه كان الحق إلا بعدما رأوا أهوال يوم القيامة وأذاقهم الله من أليم عذابها فقالوا: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ أي: في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه أو ﴿ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٢٧-٢٨).

كما قال ها هنا: ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه(١).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص٢٢٥).

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

قال ابن كثير: يخبر الله تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين والمفرطين في أمر الله وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا لعمل الصالح وإصلاح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾، فذكر الله تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ كلا: حرف ردع وزجر أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أي لأنها كلمة أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه، وقوله لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحًا ولكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

فقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله[١].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٣).

قالت عائشة رضي الله عنها: «ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم: حيةٌ عند رأسه وحيةٌ عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾».

قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: ما بين الدنيا والآخرة ليسوا من أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا من أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ (سورة إبراهيم: ١٦)، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (سورة إبراهيم: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يستمر به العذاب فلا يزال معذبًا في الأرض[1].

قال سيد قطب: وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ إنه مشهد الاحتضار وإعلان التوبة عند مواجهة الموت وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء إنما يعلن على رؤوس الأشهاد: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا...﴾ كلمة لا معنى لها ولا مدلول وراءها ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. إنها

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٤).

كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمـة تقال في لحظة الضيق ليس لها في القلب رصيد!

وبها ينتهي مـشهد الاحتضـار، وإذا الحواجز قائمة بين قـائل هذه الكلمة والدنيا جميعًا، فلقد قضي الأمر وانقطعت الصلات وأغلقت الأبواب وأسدلت الأستار.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة إنما هم في ذلك البرزخ إلى يوم يبعثون[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص٢٤٨٠، ٢٤٨١).

قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٦-١١١).

هذا إنذار ووعد ووعيد لكل من استهزأ بعباد الله الصالحين ومن تجرأ عليهم ونال منهم بالأذى. وتقريع من الله وتوبيخ لـهم ما ارتكبوه من الكفر والمآثم التي أوبقـتهم في النار وليـعلم كل من اسـتهـزأ بالدعـوة والدعاة أن هذا مـآلهم في الآخـرة وهذه مقالتهم يوم يرون العذاب لا بشرى لهم.

فـحـينمـا يسـألهم ربهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٥)، ويوبخهم على سوء صنيـعهم وكبير فعالهم وكـفرهم بآيات الله بعد إذ جاءتهم يقولون: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾.

قال القرطبي: وأحسن مـا قيل في معنى هذه الآية: غلبت علينا أهواؤنا ولذاتنا، فسمى الأهواء واللذات شقوة لأنهما يؤديان إليـهما كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (سورة النساء: ١٠)، لأن ذلك يؤدي بهم إلى النار.

وقيل: ما سبق في علمك وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة.

﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أي: كنا في فعلنا ضالين عن الهدى وليس هذا اعتذار منهم إنما هو إقرار، ويدل على ذلك قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ طلبوا

الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعود إليه، فيجابون بعد ألف سنة: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعدوا في جهنم: كما يقال للكلب: اخسأ أي: ابعد.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إن أهل جهنم يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت والله دعوتهم على مالك ورب مالك.

قال: ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيسكت عنهم مقدار الدنيا مرتين، قال: ثم يرد عليهم: اخسئوا فيها فوالله ما نبس القوم بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق من نار جهنم فتشبه أصواتهم بصوت الحمير أولها زفير وآخرها شهيق»[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يصير لهم نباح كنباح الكلاب»[٢].

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي.

﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٩-٣٠). أي: يلمزونهم استهزاءً، ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار[٣] ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) «تفسير القرطبي» (جـ٦، ص١٠٢-١٠٣).
(٣) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٦).

الكُفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثُوِّبَ الكُفَّارُ ما كانوا يفعلون ﴾ (سورة المطففين: ٣٤-٣٦).

قال سيد قطب: قال تعالى: ﴿ ألم تكن آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تُكذبون ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٥)، وكأنما يخيل إليهم - وقد سمعوا هذا السؤال - أنهم مأذونون في الكلام مسموح لهم بالرجاء وأن الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء: ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين (١٠٦) ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون ﴾.

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة ... ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم فلم يكن مأذونا لهم في غير الإجابة على قدر السؤال بل لعله كان سؤالاً للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب، فهم يزجرون زجرًا عنيفًا قاسيًا.

﴿ قال اخسئوا فيها ولا تُكلمون ﴾ اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين.

﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين (١٠٩) فاتخذتموهم سخريًا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم، إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهزر عن ذكر الله ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود ... فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم منهم تضحكون!

﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ هذا الرد القاسي المهين وبيان أسبابه وما في هذا البيان من ترذيل وتبكيت[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص٢٤٨١-٢٤٨٢).

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٤-٤٥).

يقول الله تعالى عن قيل الذين ظلموا عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ (سورة المنافقون: ٩)، وقال تعالى: مخبرًا عنهم في حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (سورة السجدة: ١٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ (سورة الأنعام: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (سورة فاطر: ٣٨).

وقال تعالى ردًا عليهم في قولهم هذا: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك.

قال مجاهد: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (سورة النحل: ٣٨).

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن

لكم منها معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (سورة القمر: ٥)(١).

قال سيد قطب: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفًا فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادًا!

﴿أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون وكأننا في الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها. فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فكيف ترون الآن؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلاً بارزًا للظالمين ومصيرهم المحتوم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

فكان عجبًا أن تروا مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم وأنتم فيها خلفاء، ثم تقسمون مع ذلك: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

وعند هذا التبكيت ينتهي المشهد، وندرك أين صاروا وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء.

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن» (جـ٢، ص: ٥٥٨).

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين، فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين سكنوا من قبلهم وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم. ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين، فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين وتصور مصائرهم للناظرين، ثم يؤخذون أخذة الغابرين ويلحقون بهم، وتخلو منهم الديار بعد حين[٢].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص ٢١١٢).

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (سورة فاطر: ٣٦-٣٧).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ (سورة طه: ٧٤)، وكما قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٧). فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٤-٧٥)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٩٧)، ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (سورة النبأ: ٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق. وقوله جلَّت عظمته: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي: ينادون فيها ويجأرون إلى الله عزَّ وجلَّ بأصواتهم: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون؛ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم كما قال

---

(١) رواه مسلم.

تعالى مخبرًا عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ⦗١١⦘ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ولذا قال ها هنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟!

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»**[١].

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء مدة أعماركم فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال[٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾

قال سيد قطب: فلا هذه ولا تلك حتى الرحمة بالموت لا تنال![٣]

قال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يتصارخون يفتعلون الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة كصرخة حُبلى أسلمتها قبيلتها.

﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ زيادة في التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، والمعنى: أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله[٤].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ٥٧٨).
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٢٩٤٥).
(٤) «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل» (جـ٣، ص٣١٠).

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة الزمر: ٥٥-٥٩).

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ القرآن العظيم.

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أي: يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المؤمنين المخلصين المطيعين لله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: تَود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل ان يقولوه وعملهم قبل ان يعملوه، قال تعالى: ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (سورة فاطر: ١٤)».

﴿أن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآيات.

فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٨).

وقال أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكر»**[١].

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك وكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها[٢].

قال الغزالي: ولعمري الإشادة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة وما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بما سبق في حقك، فإن قلت: وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها هو أن

---

(١) رواه النسائي.

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٦٠).

تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كُلاً ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا ويحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًا إلا وتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك؛ فإن دلالة ذلك على العاقبة.

قال عيسى عليه السلام: «**كم من جسد صحيح، ووجه صبيح، ولسان فصيح، غداً بين أطباق النار يصيح**».

وقال داود عليه السلام: «**إلهي لا صبر لي على حر شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟**»، فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار وأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قُضي وفُرغ منه.

كما قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة مريم: ٣٩)[١].

(١) «مكاشفة القلوب» (ص١٧٧).

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى: ٤٤-٤٥).

يقول الله تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (سورة الكهف: ١٧).

ثم قال تعالى مخبرًا عن الظالمين: ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي: يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي: النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ أي: الذل الذي اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى.

﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي: ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة وهو أعظم مما في نفوسهم! أجارنا الله من ذلك ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: ذهب إلى النار فعدموا لذتها في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقربانهم فخسروهم.

﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص١٢٠).

قال تعالى: ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل (٤٤) وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾ والظالمون كانوا طغاة بغاة فناسب أن يكون الذل مظهرهم البارز في يوم الجزاء.

إنهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياؤهم ويتساءلون في انكسار: ﴿هل إلى مرد من سبيل﴾ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة والانهيار مع التطلع إلى بارقة للخلاص! وهم يعرضون على النار ﴿خاشعين﴾ لا من التقوى ولا من الحياء ولكن من الذل والهوان! وهم يعرضون منكّسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ وهي صورة شاخصة ذليلة.

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدون لهم ملجأ يقيهم ولا نصير ينكر مصيرهم الأليم[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٣١٦٨).

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المنافقون: ١٠-١١).

يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهيًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك مخبرًا لهم بأنه مَن الْتهى بمتاع الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت كل بحسب تفريطه.

وحين يُري الظالمين مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم فعندئذ يقول الظالم: ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

فرد عليهم الله عزَّ وجلَّ قائلاً: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا ينظر أحد بعد حلول أجله وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر ما كان عليه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٣٧٣).

فبعد ضم الله عزَّ وجلَّ رسوله والمؤمنين إلى جانبه ويضفي عليهم من عزته وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جواره ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا صف العزيز! ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة المنافقون:٨)، وصدق الله فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزة الله تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن ولا تنحني ولا تلين ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟ لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله ﷺ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ويبرؤا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

والأموال والأولاد مشغلة وملهاة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفات الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الله الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال بالمصدر ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

وأول ما يخسـرونه هو هذه السمة. سمـة الإنسان. فهي موقـوفة على الاتصال بالمصدر الذي به صـار الإنسان إنسانًا. ومن يخسـر نفسه فقـد خسر كل شيء مـهما يملك من مال ومن أولاد.

ويلمسـهم في موضـوع الإنفاق لمسـات متنوعـة في آية واحدة ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم ﴾، فيذكرهم بمصـدر هذا الرزق الذي في أيديهم فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ فيترك كل شيء وراءه لغيره وينظر فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران.

ثم يرجو حينئـذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتـصدق وليكون من الصالحين! وإني له هذا: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾؟ وأنَّى له ما يتـقدم به؟ ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

إنها اللـمسات المنوعـة في الآية الواحدة. في مكـانها المناسب. بعـد عرض سمـات المنافقين وكيـدهم للمؤمنين. ولواذ المؤمنين بصـف الله الذي يقيهم كـيد المنافقين . . . فمـا أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان وألا يـغفلوا عن ذكر الله وهو مصدر الأمان.

وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص٣٥٨١).

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السجدة: ١٢-١٤).

يقول سيد قطب: إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة والإقرار بالحق الذي جحدوه وإعلان اليقين بما شككوا فيه وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وهم ناكسوا رؤوسهم خجلا وخزيًا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا إعلان.

وقبل أن يعلن السياق جواب استخزائهم الذليل يقرر الحقيقة التي تتحكم في الموقف كله وتتحكم قبل ذلك في حياة الناس ومصائرهم: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ لو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقًا واحدًا هو طريق الهدى كما وحد طريق المخلوقات التي تهتدي بإلهام كامن في فطرتها وتسلك طريقة واحدة في حياتها من الحشرات والطير والدواب والخلائق التي لا تعرف غير الطاعات كالملائكة، ولكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ويختار الهداية أو يحيد عنها ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التي فطره الله عليها لغرض وحكمة في تصميم هذا الوجود، ومن ثَم كتب الله في قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ويسلكون الطريق المؤدي إلى جهنم.

وهؤلاء المجرمــون المعروضــون على ربهم وهم ناكسوا رؤوســهم هؤلاء ممن حق عليهم القــول ومن ثم يقال لهم: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾، يومكم هذا الحاضر فنحن في المشــهد في اليوم الآخر . . . ذوقوا بسبب نسيــانكم لقاء هذا اليوم وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت ذوقوا ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ . . والله لا ينسى أحدًا ولكنهم يعاملون معــاملة المهملين المنسيين، معاملة فيها مهــانة وفيها إهمال وفيها إزدراء ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ويســدل الستــار على المشهــد وقد قــيلت الكلمة الفــاصلة فيــه وترك المجــرمون لمصيرهم المهين ويحس قارئ القرآن وهو يجــاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك وكأنهم شاخــصون حيث تركهم! وهذه إحــدى خصائص التــصوير القرآني المحيي للمــشاهد الموحي للقلوب[1] .

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٢٨١٢).

المطلب الثالث

طلب الانتقام من الأولياء

المطلب الثالث

الانتقام من الأولياء

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (سورة النساء: ٥٦).

قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية وقال لكعب: «يا كعب أخبرني بتفسيرها فإن صدقت صدقتك وإن كذبت رددت عليك، فقال: إن جلد ابن آدم يحرق ويجدد في ساعة أو في يوم ستة آلاف مرة! قال: صدقت»[١].

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودوا كما كانوا[٢].

ويؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ صبغة ثم يقال له: يا بن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب!

ويؤتى بأشد الناس بؤسًا ثم يقال له: يا بن آدم هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط!

وروي أنه يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت.

---

(١)،(٢) رواهما البيهقي.

وقال ابو يعلى: يا أيهـا الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكـوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسـيل دموعهم في خدودهم كأنهـا جداول حتى تنقطع الدموع فـيسيل الدم فتقرح العيون[١].

فيا هذا أين الذي جـمعته من الأموال وأعددته للشدائد والأهـوال؟ لقد أصبحت كـفك منه عند الموت خالـية صـفرًا وبدلت من بعـد غناك وعـزك ذلاً وفقـرًا فكيف أصبـحت يا رهين أوزاره، ويا من سلب من أهله ودياره ما كـان أخفى عليك سـبيل الرشاد وأقل اهتمامك لحـمل الزاد إلى سفرك البعيد وموقـفك الصعب الشديد، أوما علمت يا مغـــرور أن لابـد لك من الارتحال إلى يـوم شديـد الأهـــوال وليس ينفعك ثَمَّ قـيل ولا قال، بل بـعد عليك بين يدي المـلك الديـان ما بطـشت اليدان ومـشت القدمان ونطق به اللـسان وعملت الجوارح والأركان، فـإن رحمك فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فـإلى النيران، يا غافلاً عن هذه الأهوال إلى كم هذه الـغفلة والتوان، أتحسب أن الأمـر صغـير وتزعم أن الخطب يسـير؟ وتظن أن سـينفعـك حالك إذا آن ارتحـالك أو ينقذك مـالك حين توبقك أعـمالك، أو يـغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك، أو يعطف عليـك معشرك حين يضـحك محشـرك، كلا والله ساء مـا تتوهم ولابد لك أن ستعـلم، لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظـاة تستمع، ولا بالوعيد ترتدع.

دأبك أن تتقلب مع الأهواء وتخبط خبط العـشواء، يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك، يا نائمًا في غفلة وفي خبطه يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان،

---

(١) «مكاشفة القلوب» (ص٣٧٢).

أتزعم أنك ستترك سدى وأن لا تحاسب غدًا، أم تحسب أن الموت يقبل الرِّشا، أم تميز بين الأسد والرشا؟ كلا والله لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور؛ فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٣٩- ٤٠).

فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمنى منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار، بل أكثر من الأعمال الصالحات، وراقب الله في الخلوات رب الأرض والسماوات، ولا يغرنك الأمل فتزهد عن العمل، أوما سمعت الرسول حيث يقول لمَّا جلس على القبور: **«يا إخواني لمثل هذا فأعدوا»**، أوما سمعت الذي خلقك فسواك يقول: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٧).

تزود من معاشك للمعاد ** وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيراً ** فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ** لهم زاد وأنت بغير زاد؟

وأنشدوا:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ** ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ** وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال آخر:

الموت بحر طافح موجه ** تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إني قائل فاسمعي ** مقالة من مشفق ناصح
لا ينفع الإنسان في قبره ** غير التقى والعمل الصالح

وقال آخر:

أسلمني الأهل ببطن الثرى ** وانصرفوا عني فيا وحشتا
وغادروني معدمًا بائسًا ** ما بيدي اليوم إلا البكا
وكل ما كان كأن لم يكن ** وكل ما حذرته قد أتى
وذاكم المجموع والمقتنى ** قد صار في كفي مثل الهبا
ولم أجد لي مؤنسًا هاهنا ** غير فجور موبق أوبقا
فلو تراني وترى حالتي ** بكيت لي يا صاح مما ترى

وقال آخر:

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيًا ** والقوم حولك يضحكون سرورًا
فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا ** في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا[1]

(١) «القرطبي»: «التذكرة» (ص١١٩، ١٢٠).

قال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨-٣٩).

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ﴾ أي: من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: في أمم ويحتمل أن يكون في أمم أي: مع أمم.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة البقرة: ١٦٦-١٦٧)، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ ﴾ أي: آخرهم دخولاً وهم الاتباع، لأولاهم وهم المتبوعون الأشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الاتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا

أطعْنا اللَّهَ وَأطعْنا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أطعْنا سَادَتَنَا وَكُبرَاءَنَا فَأضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (سورة الاحزاب: ٦٦-٦٨)(١).

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾: الضعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات، وعن ابن مسعود ﷺ: «أن الضعف هاهنا الأفاعي والحيات»(٢).

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه للتابع والمتبوع كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ (سورة النحل: ٨٨)، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣)، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة النحل: ٢٥).

﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للاتباع.

﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة سبأ: ٣١-٣٣)(٣).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٢١٧).
(٢) «تفسير القرطبي» (جـ٤، ص: ١٣١).
(٣) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٢١٨).

يقول سيد قطب: فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحن أمام المشهد التالي وهؤلاء المحتضرون في النار!... ويسكت السياق عما بينهما، ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار!

﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس... هنا في النار... أليس إبليس الذي عصى ربه؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه؟ وهو الذي أغوى من أبنائه؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار؟... فادخلوا إذن جميعًا... ادخلوا سابقين ولاحقين... فكلكم أولياء... وكلكم سواء!

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ويملي متبوعها لتابعها، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينهم وكيف يكون التنابز فيها:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ويتنكر فيها الولي لمولاه!

﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ وتلاحق آخرهم وأولهم واجتمع قاصيهم بدانيهم بدأ الخصام والجدال:

﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ وهكذا تبدأ مهزلتهم ومأساتهم! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء وهم متناكرون أعداء يتهم بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا، ويطلب له من ﴿رَبَّنَا﴾ شر الجزاء... من

﴿رَبَّنَا﴾ الذي كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء! فيكون الجواب استجابة للدعاء، ولكن أيَّة استجابة؟!

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ لكم ولهم جميعًا ما طلبتم من مضاعفة العذاب! وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين حينما سمعوا جواب الدعاء فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة... كلنا سواء... في هذا الجزاء:

﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٣، ص: ١٢٩٠).

قال تعالى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ (سورة ص: ٥٥-٦١).

قال ابن كثير: لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ المخالفون لرسل الله صلى الله عليهم وسلم.

﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أي: لسوء المنقلب والمرجع، ثم فسره بقوله جلَّ وعلا: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم: ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل. الشيء وضده يعاقبون بها.

قال رسول الله ﷺ: «لو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[1].

قال كعب الأحبار: غساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه.

---

(١) الترمذي وأحمد.

قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾: ألوان من العذاب، وقال غيره: كـالزمهرير والسموم وشراب الحميم وأكل الزقـوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعـضهم لبعض كمـا قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ (سورة الأعراف:٣٨)، يعني بدل السـلام يتلاعنون ويتكاذبون ويـكفر بعـضهم ببـعض فتـقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أي: داخل ﴿ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أي: فيـقول لهم الداخلون ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أي: بئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف:٣٨). أي: لكل منكم عذاب بحسبه[١].

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ قال الزمخشري: والمعنى: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحـبتكم وقرانكم، والاقتحام ركـوب الشدة والدخول فيـها والقـحمة الشـدة... والمراد بالفوج أتبـاعهم الذين اقـتحمـوا معهـم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب[٢].

قال سيد قطب: قال تعالى: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ... ها هي ذي جـماعـة من أولئك الطاغين من أهل جهنم كـانت

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٤٢).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص:٣٧٩).

في الدنيا متوادة متحابة فهي اليوم متناكرة متنابذة كان بعضهم يملي لبعض في الضلال وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (سورة ص:٨).

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجًا بعد فوج وها هم أولاء يقول بعضهم لبعض: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ . . . فماذا يكون الجواب؟ يكون الجواب في اندفاع وضيق: ﴿ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ ! فهل يسكت المشتومون؟ كلا! إنهم يردون!: ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ . . . فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب، وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ .

ثم ماذا؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون [illegible]
ويظنون بهم شرًا ويسخرون من دعواهم في النعيم.

ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين في النار فيتساءلون: أين هم؟ أين ذهبوا؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟: ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ (سورة ص:٦٢-٦٣)؟ . . . بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان.

ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (سورة ص:٦٤).

فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين، الذين كانوا يسخرون منهم ويستكثرون اختيار الله لهم، وما أبأس نصيبهم الذي كانوا به يستعجلون ويقولون: ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (سورة ص:١٦)[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٢٤).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (سورة فصلت: ٢٩).

قال علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿ اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه.

وقال السدي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس الداعي إلى كل شرك فما دونه وابن آدم، وفي الحديث: **«ما قُتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»** وقولهم: ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابًا منا، ولهذا قالوا: ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في سورة الأعراف في سؤال الاتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم: ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) أي: أنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨٨)[1].

﴿ اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ أي: الشيطانين اللذين أضلانا ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (سورة الناس: ٥-٦). وقيل: هما إبليس وقابيل لأنهما سنا الكفر والقتل بغير الحق[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٩٨).

(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٤٥٢).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ إنه الحنق والتحرق على الانتقام: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ وذلك بعد المودة والمخادنة والوسوسة والتزيين! هذه صلة الوسوسة والإغراء![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣١٢٠).

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٧-٦٨).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٤-٦٨).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: أبعدهم من رحمته.

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها.

﴿ لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ أي: يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

وقال تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (سورة الحجر: ٢). وهكذا أخبر الله عنهم في حالتهم هذه الأمة أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾ قال طاووس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني: العلماء.

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شي.

﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا[1].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ إن الله طرد الكافرين من رحمته وهيأ لهم نارًا مسعرة متوقدة فهي معدة جاهزة حاضرة.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ باقين فيها عهدًا طويلاً لا يعلم مداه إلا الله ولا نهاية له إلا في علم الله حيث يشاء وهم مجردون من كل عون محرومون من كل نصير، فلا أمل للخلاص من هذا السعير بمعونة من ولي ولا نصير.

﴿ لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ أما مشهدهم في العذاب فهو مشهد بائس أليم.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ والنار تغشاهم من كل جهة، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال!

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٥٣٦).

﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ وهي أمنية ضائعة لا موضع لها ولا استجابة فقد فات الأوان إنما هي الحسرة على ما كان!

ثم تنطلق من نفوسهم النقمة على سادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم وبالإنابة إلى الله وحده حيث لا تنفع الإنابة: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ هذه هي الساعة ففيم السؤال عنها؟ إن العمل لها هو المخلص الوحيد من هذا المصير المشؤوم فيها[١].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٨٨٢-٢٨٨٣).

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة البقرة: ١٦٥-١٦٧).

يذكر الله تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادًا أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه.

قال ابن مسعود ﷺ: قلت: **يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»** (١).

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئًا بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجئون في جميع أمورهم إليه.

ثم توعد الله تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾.

قال بعضهم: تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا أي أن الحكم له وحده لا شريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ كما قـال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ (سورة الفجر: ٢٥-٢٦).

يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عمـا هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبري المتبوعين مـن التابعين فقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمـون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا فـتقول الملائكة: ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (سورة القصص: ٦٣)، ويقولون: ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٤١).

والجن أيضًا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبـادتهم لهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (سورة الاحقاف: ٦).

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (سورة مريم: ٨١-٨٢).

وقوله تـعالى: ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ أي: عاينـوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفًا.

قال ابن عباس: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ قال: المودة.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ أي: لو أن لنا عـودة إلى الدار الدنيا حـتى نتبرأ من هـؤلاء ومن عـبادتهم فلا نلتفت إليـهم بل نوحد الله وحـده بالعـبـادة - وهم كـاذبون في هـذا، بل لو ردوا لعـادوا لما نهـوا عنـه وإنهم لكاذبون كـما أخـبر الله تعـالى عنهم بذلك، لهـذا قال: ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فجعلناه هباءً منثورًا ﴾ (سورة الفرقان: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ (سورة إبراهيم: ١٨)، وقال تعالى: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ﴾ (سورة النور: ٣٩). ولهذا قال: ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾[1].

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ﴾ من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا. . . كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارًا وأشجارًا أو نجومًا وكواكب أو ملائكة وشياطين وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص أو إشارات أو اعتبارات، وكلها شرك خفي أو ظاهر إذا ذكرت إلى جانب اسم الله وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟

إن المؤمنين لا يحبون شيئًا حبهم لله لا أنفسهم ولا سواهم لا أشخاصًا ولا اعتبارات ولا إشارات ولا قيمًا من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس.

﴿ والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ أشد حبًا لله، حبًا مطلقًا من كل موازنة ومن كل قيد، أشد حبًا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية والتجاذب الروحي، صلة المودة والقربى، صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود!

﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب (١٦٥) إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) وقال الذين اتبعوا لو

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ١، ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أولئك الذين اتخذوا من دون الله أندادًا فظلموا الحق وظلموا أنفسهم لو مدوا أبصارهم إلى يوم يقفون بين يدي الله الواحد! لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين! لو يرون لرأوا ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا شركاء ولا أنداد . . . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ .

لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين ورأوا العذاب. فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب وانشغل كل بنفسه تابعًا كان أم متبوعًا وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها وعجزت عن وقاية أنفسها فضلاً عن وقاية تابعيها وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ . . . وتبدي الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة وتمنوا لو يردون لهم الجميل! لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب!.

إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين! وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ١، ص: ١٥٣-١٥٤).

المطلب الرابع

طلب الاستنجاد بالشركاء والأولياء

المطلب الرابع

الاستنجاد بالشركاء والأولياء

قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»**[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يلقى على أهل النار الجوع فيعدل عندهم ما فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصةٍ فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم ينالونه بكلاليب من حديد فإذا دنا منهم شوى وجوههم وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم فيطلبون إلى خزنة جهنم: أن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (سورة غافر: ٤٩).

فيجيبونهم: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (سورة غافر: ٥٠).

فيقولون: سلوا مالكًا، فيقولون: يا مالك! ليقض علينا ربُّك فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٧٠).

فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨).

---

(١) رواه مسلم.

فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

وتفكر في حياتها وعقاربها، ففي الحديث: **«إن حياتها أمثال أعناق البخت، وعقاربها كالبغال الموكفة»**.

وعن الحسن: **«إن النار تأكلهم في كل يوم سبعين ألف مرة، ثم يعودون كما كانوا»**[(١)].

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان هلم إلى العرض على الله تعالى، وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك وتغير لونك وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق أبصارهم إليك وأنت في أيديهم وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك!

فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها، وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيمًا، فيا حسرة

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص: ٤٤٩).

قلبك وأسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (سورة الحاقة: ١٩)، فعلم أنه من أهل الجنة، ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقة: ١٩)، وذلك حين يأذن لك الله فتقرأ.

مثّل وقوفك يوم العرض عريانا ✶✶ مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ✶✶ على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ✶✶ فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ✶✶ إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ✶✶ وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غدا في النار يلتهبوا ✶✶ والمؤمنون بدار الخلد سكانا[1]

(١) القرطبي: التذكرة (ص: ٣٠٧).

قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة إبراهيم: ٢١-٢٢).

يقول تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار أي: اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل وقالوا لهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا.

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت لهم القادة: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

ويخبر الله تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبًا

ليزيدهم حـزنًا إلى حزنهم وغبـنًا إلى غبنهم وحسـرة إلى حسرتهم فـقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله ووعدكم في اتباعهم النـجاة والسلامة وكان وعدًا حقًا وخبرًا صدقًا وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (سورة النساء: ١٢٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به.

﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقـد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيـحة على صدق ما جاءوكم به فخالفتـموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه.

﴿فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم.

﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل.

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: بسبب ما أشركتموني من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكًا لله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الراجح كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف: ٥-٦)، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (سورة مريم: ٨٢).

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم ظاهر.

فعن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى - فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي، فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلس من أطيب ريح شمها أحد قط حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: ها قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت من أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم نحيبهم ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب: لما قال أهل النار: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال لهم إبليس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (سورة غافر: ١٠)[2].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾: ذُكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٤٤، ٥٤٥).
(٢) «ابن كثير»، «تفسير القرآن» (جـ٢، ص: ٥٤٥).

الطاعة لله عزَّ وجلَّ فنفعهم الصبر إذ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم فجزعوا فنادوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: لست بمغنٍ عنكم شيئًا.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ فلا أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي، والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة والمُصرخ هو المغيث[1].

قال الزمخشري: قال تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخًا لهم وعتابًا على استتباعهم وإغوائهم وقولهم فهل أنتم مغنون عنا من باب التبكيت لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم[2].

يقول سيد قطب: لقد انتقلت الرواية رواية الدعوة والدعاة والمكذبين والطغاة... انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المكذبون الطغاة وأتباعهم من الضعفاء المستذلين. ومعهم الشيطان... ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات... برزوا ﴿جَمِيعًا﴾ مكشوفين وهم مكشوفون دائمًا، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ولا يسترهم ساتر ولا يقيهم واق... برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار وبدأ الحوار: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ...

---

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٩، ص: ٢٣٣، ٢٣٤).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٢، ص: ٣٧٣).

والضعفــاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خـصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشـخصية في التفكير والاعتـقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغـاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عـذرًا بل هو الجريمة فمـا يريد الله لأحد أن يكون ضعيـفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حـمـاه يعتزون به - والعـزة لله - ومـا يريـد الله أن ينزل طائعًا عن نصـيبه في الحـريـة التي هي ميـزته ومنـاط تكريمـه، أو أن ينزل كارهًـا، والقوة الماديـة - كائنة ما كـانت - لا تملك أن تستعبد إنـسانًا يريد الحرية ويستمـسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه هذه القوة أن تملك الجسد تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أمـا العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا اسـتذلالها إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضـعفاء تبعًـا للمستكبرين في العـقيدة وفي التفكير وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضـعفاء يدينون لغيـر الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحـد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة، فـهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغـاة ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالاً أو منصبًا أو مـقامًا... كلا إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعـفاء لأن الضعف في أرواحـهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعـتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعـفين كثرة والطواغيت قلة، فمن ذا الذي يخـضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذي يخضـعهـا؟ إنما يخضعـهـا ضـعف الروح وسقـوط الهمة وقلة النخـوة والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!.

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير، فهي قادرة دائمًا على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء... وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ﴿ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ ؟

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة وتعريضهم إياهم للعذاب؟

إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿ **قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ !... وهو رد يبدو فيه البرم والضيق.

﴿ **لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ** ﴾ فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضلكم. ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله فيعترفون بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار، وهم إنما يتهربون من تَبِعة الضلال والإضلال يرجع الأمر لله، والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨).

ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر، فقد حق العذاب ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان فيه الجزع من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله، لقد انتهى كل شيء ولم يعد هنالك مفر ولا محيص!: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ لقد قضي الأمر وانتهى الجدل وسكت الحوار، وهنا نرى على المسرح عجبًا، ونرى الشيطان هاتف الغواية وحادي الغواة نراه الآن يلبس مسوح الكهان أو مسوح الشيطان أو يتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

الله! الله! أمَا إن الشيطان حقًا لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار.

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور وأغرى بالعصيان وزين الكفر وصدهم عن استماع الدعوة، هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضي الأمر - هو الذي يقول الآن وبعد فوات الأوان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾!

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له وليس له عليهم من سلطان سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله.

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ ثم يؤنبهم ويدعوهم لتأنيب أنفسهم. يؤنبهم على أن أطاعوه!

﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ ثم يخلي بهم وينفض يده منهم وهو الذي وعدهم من قبل ومنَّاهم ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ!

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك.

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ! ﴾ ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة، الأمة الفائزة، الأمة الناجية: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ (سورة إبراهيم:٢٣). ويسدل الستار

فيا له من مشهد ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة[١]!

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص:٢٠٩٥-٢٠٩٨).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة القصص: ٦٢-٦٤).

يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون، وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤).

وقوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر.

﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فشهد عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (سورة مريم: ٨١-٨٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥-٦)، وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٥)،

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ (سورة البقرة: ١٦٦)، ولهذا قال: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا.

﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٢-٥٣)[1].

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ والله يعلم أنه لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئًا ولا يستطيعون إليهم سبيلا، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد.

ومن ثم لا يجيب المسئولون عن السؤال فليس المقصود به هو الجواب! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم وصدهم عن هدى الله، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم، فيقولون: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ !

ربنا إننا لم نغوهم قسرًا فما كان لنا من سلطان على قلوبهم إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار.

﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ من جريمة إغوائهم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٤١٠-٤١١).

﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ إنما كانوا يعبـدون أصنامًا وأوثانًا وخلقًا من خلقك ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة!

عندئذ يعـود بهم إلى المخـزاة التي حولوا الحـديث عنهـا بخـزاة الشركـاء الذين اتخذوهم من دون الله!

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ ادعوهم ولا تـهربوا من سيـرتهم! ادعوهم ليلـبوكم وينقذوكم! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم!.

والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين.

﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ لم يكن منتظرًا غير ذاك ولكنه الإذلال والإعنات!

﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ رأوه في هذا الحوار ورأوه مـاثلاً وراءه فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب وهنا في اللحظة الـتي يصل فيها المشـهد إلى ذروته يعرض عليـهم الهدى الذي يرفضونه وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب: وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون: ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٧٠٦).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٢-٥٣).

يخبر الله تعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا.

﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم لينقذوكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤)، وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ (سورة القصص: ٦٤)، وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥)، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (سورة مريم: ٨١-٨٢).

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ قال ابن عباس: مهلكًا.

وقال قتادة: موبقا: هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال أنس بن مالك: موبقًا: واد في جهنم من قيح ودم.

والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد الفريقين إلى الآخر بل بينهم مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فإذا ﴿ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا يدلهم منها.

قال رسول الله ﷺ: **«ينصب الكافر مقدار خمسين الف سنة كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر يرى جهنم ويظن انها مواقعته من مسيرة اربعين سنة»**[١].

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ إنهم في الموقف الذي لا تجدي فيه دعوى بلا برهان، والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا... وإنهم لفي ذهول ينسون أنها الآخرة فينادون، لكن الشركاء لا يجيبون! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا في الموقف المرهوب وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء... إنها النار.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ ويتطلع المجرمون فتمتلىء نفوسهم بالخوف والهلع وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها، وما أشق توقع العذاب وهو حاضر، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص.

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ولقد كان لهم عنها مصرفًا لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به[٢].

---

(١) رواه أحمد ـ «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٩٢-٩٣).
(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٢٧٥).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٣١-٣٣).

يخبر الله تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وبما أخبر به من أمر المعاد ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومخبرًا على مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع، ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم، ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهارًا، وتغـرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فـإذا جميع ذلك باطل وكذب مبين.

﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قال قتادة: والمعنى: بل مكركم بالليل والنهار.

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاء وأشياء من المحال أن تضلونا بها.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كُلٌّ ندم على ما سلف منه.

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم.

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف:٣٨).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»**.

قال الحسن بن يحيى الخشني: مـا في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا اسم صاحبه عليها مكتوب... فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجليه والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل المغار؟[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٥٥٦-٥٥٧).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهـو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى في كل مصادره، لا القرآن ولا الكتب التي سبقته والتي تدل على صدقه، فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد، ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفـر ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظـروا في دلائل الهدى كائنة ما كانت. فهو العمد إذن وسبق الإصرار!.

عندئذ يجيـبهم بمشهدهم يوم القـيامة وفيـه هذا الإصرارا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

ذلك كان قـولهم في الدنيا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فلو ترى قولهم في موقف آخر.

لو ترى هؤلاء الظالمين وهم ﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾ على غير إرادة منهم ولا اختيار إنما هم مذنبون بالوقـوف في انتظار الجزاء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ... ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقـوله وكتبـه. ثم ها هم أولاء موقـوفون عنده! لو ترى يومـئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضًا ويؤنب بعضهم بعضًا، ويلقى بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ فماذا يرجعون من القول؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ فيلقون على الذين استكبروا تبـعة الوقفة المرهوبة المهينة ومـا يتوقعون بعدها مـن البلاء! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مـواجهتهم هذه المواجهة، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام وبيع الحرية التي وهبها الله لهم والكرامة التي منحها إياهم والإدراك الذي أنعم به عليـهم، أما اليـوم وقد سقطت القـيم الزائفة وواجـهوا العذاب الأليم فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين! ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا فهم في البلاء سواء، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحمّلوهم تبعة الإغواء التي صار بهم إلى هذا البلاء، وعندئذ يردون عليهم باستنكار ويجيبونهم بالسب الغليظ: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ ، فهو التخلي عن التبعة والإقرار بالهدى وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزنًا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأيًا ولا يعتبرون لهم وجودًا ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما اليوم ـ وأمام العذاب ـ فهم يسألونهم في إنكار: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ . . . ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ من ذات أنفسكم لا تهتدون لأنكم مجرمون!.

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون بل يجابهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارًا ولا ليلاً للصد عن الهدى وللتمكين للباطل ولتلبيس الحق وللأمر بالمنكر ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء وهؤلاء ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين فلكل جريمته وإثمه، والمستكبرون عليهم وزرهم وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم، والمستضعفون عليهم وزرهم فهم مسئولون عن اتباعهم للطغاة لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين. لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين فاستحقوا العذاب جميعًا وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضرًا لهم مهيأ.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور فلا تفوه بها الألسنة ولا تتحرك بها الشفاه، ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد.

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين!

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان وإدراك الإنسان وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان. . . وكلهم في العذاب سواء لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

ويسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعدُ أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنهم يرونهم، وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩٠٩-٢٩١٠).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٤٠-٤٢).

إن الله عزَّ وجلَّ يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة: ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أي: أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (سورة الفرقان: ١٧)، وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ (سورة المائدة: ١١٦).

وهكذا تقول الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله.

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء.

﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ (سورة النساء: ١١٧-١١٨)، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا.

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون.

﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا(١).

. . . يواجه الله عزَّ وجلَّ الظالمين بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يذوقون عذاب النار الذي كانوا به يستعجلون ويقولون: متى هذا الوعد؟ كما جاء في أول الشوط.

. . . فهؤلاء هم الملائكة التي كانوا يعبدونهم من دون الله أو يتخذونهم عنده شفعاء، هؤلاء هم يواجهون بهم. فيسبحون الله تنزيهًا له من هذا الادعاء ويتبرأون من عبادة القوم لهم فكأنما هذه العبادة كانت باطلاً أصلاً، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة. إنما هم يتولون الشيطان إما بعبادته والتوجه إليه وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان! ذلك إلا أن عبادة الجن عرفت بين العرب وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة، ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت.

﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ لا الملائكة يملكون للناس شيئًا ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئًا، والنار التي كذب بها الظالمون وكانوا يقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ها هم أولاء يرونها واقعًا لاشك فيه(٢).

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٥٥٩).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩١١).

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (سورة غافر: ٤٧-٤٨).

يخبر الله تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال.

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا.

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال.

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أي: قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨)[١].

﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمَّعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنمًا تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار!.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسان وكرامة التبعة الفردية وكرامة الاختيار والحرية، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعًا، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، لم يقولوا لهم: لا، بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال... ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٨٣).

وما كان تنازلهم عـما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكونوا شـفعاء لهم عند الله، فهم في النار، ساقهم إليها قادتهم كما كـانوا يسوقونهم في الحياة سوق الشياة! ثم ها هم يسألون كبراءهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشـاد وأنهم يحمونهم من الفسـاد وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء!.

وأما الذين استكبروا فيضيقون صدرًا بالذين استضعفوا ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ إنا كل ضعاف لا نجد ناصـرًا ولا معينًا، إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء، فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء!؟

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجـال لتغيير فيه أو تعديل وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئًا من حكم الله[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٤).

قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الصافات: ٢٧-٣٤).

يذكر الله تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار.

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنَّا كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق.

﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة الإيمان قابلة للكفر والعصيان.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه.

﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم.

﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (٣١) فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله أنّا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة.

﴿ فأغويناكم ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة.

﴿ إنا كنا غاوين ﴾ فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ الجميع في النار كل بحسبه.

﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي في الدار الدنيا(١).

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٧) قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ أي كنتم توسوسون لنا عن يميننا ـ كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالإسرار غالبًا ـ فأنتم مسئولون عما نحن فيه.

وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام وإلقاء التبعة على موجهيه.

﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان وأضلتكم بعد هدى.

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ نرغمكم به على قبول ما نراه ونضطركم إليه اضطرارًا لا ترغبون فيه.

﴿ بل كنتم قومًا طاغين ﴾ متجاوزين للحق ظالمين لا تقفون عند حد.

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٥).

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ فاستحققنا نحن وأنتم العذاب وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب! وقد انزلقتم معنا بسبب استعـدادكم للغواية وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا.

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ وهنا يرد تعليق آخر وكـأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهـاد يحمل أسبـابه ويعرض ما كان منـهم في الدنيا مما حقق قـول الله عليهم في الآخرة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [(١)].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٩٨٧).

المطلب الخامس

طلب الخروج من النـــار

المطلب الخامس

طلب الخروج من النـار

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: **«يا جبريل مالي أراك متغير اللون؟»**، فـقال: مـا جئـتك حتى أمـر الله عزَّ وجلَّ بمنافخ النار، فـقال رسـول الله ﷺ: **«يا جبـريل صف لي النار وانعت لي جهنم»**، فقال جبـريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهـنم فأوقد عليها ألـف عام حتى ابيضت ثم أمـر فأوقد عليها ألـف عام حتى احمـرت ثم أمر فأوقد علـيها ألف عام حـتى اسودت فهي سـوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يُطفأ لهيبهـا، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جـميعًـا من حره، والذي بعـثك بالحق لو أن خازنًا مـن خزنة جهـنم برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلـهم جميـعًا من قـبح وجهـه ونتن ريحه، والذي بعـثك بالحق لو أن حلقة من حـلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لانفـضَّت وما تقارت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله ﷺ: **«حسبي يا جبريل لا ينصدع قلبي فاموت»**، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال: **«تبكي يا جبريل وانت من الله بالمكان الذي انت به!»**، فقال: وما لي لا أبكي أنا أحق بالبكاء لعلِّي أكـون في علم الله على غير الحال التي أنا عليهـا وما أدري لعلي ابتلى بما ابتلي به إبليس فقـد كان من الملائكة، ولعلِّي ابتلى بما ابتلي به هاروت وماروت؟! قال: فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل عليه السلام فـما زالا يبكيان حـتى نوديا: أن يا جبريل ويا مـحمد: إن الله عـزَّ وجلَّ قد

أمنكما أن تعصياه، فارتفع جبريل عليه السلام، وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال: «اتضحكون وورائكم جهنم! فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما اسغتم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[1].

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: «ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكًا قط؟»، قال: «ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار»[2].

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهاذمًا للّذات، وقاطعًا للأمنيات، فهل تفكرت يا بن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب. فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدمت بأوزارك إلى من لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ (سورة القصص:٧٧)، أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في الطين والماء والتجبر والبغي، فكأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هو الكفن.

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه أحمد.

ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ** رداءان تُلوَى فيهما وحنوط

وقال آخر:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً ** فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ** هل راح منها بغير القطن والكفن؟

ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ وإلا ففي قوله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥) ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ** يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه ** والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الريح له ** والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التي كانت لعزتها ** من كل أوب إليها وافد يفد؟
حوض هنالك مورود بلا كذب ** لابد من ورده يومًا كما وردوا[1]

(١) «التذكرة» للقرطبي (ص: ٣١-٣٢).

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

قال ابن كثير: إن الظالمين لا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من العذاب وشدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا بن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار»**[2].

قال سيد قطب: إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات، منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه، ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به، ومنظرهم وهم مخيبوا الطلب غير مقبولي الرجاء، ومنظرهم وهم يدخلون النار، ومنظرهم وهم يحاولون الخروج من النار، ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء فيها، ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك[3].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٥).
(٢) رواه مسلم والنسائي.
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص: ٨٨٢).

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٦٤-٦٧).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم:

﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴾ (سورة المزمل: ١١-١٢)، وقال تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (سورة ص: ٣).

﴿ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴾ أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم. ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (سورة غافر: ١٢).

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ قيل: مستكبرين حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، وقيل أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ قيل مستكبرين بالبيت يقولون: نحن أهله سامرًا وكانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه[١].

يقول سيد قطب: ثم رسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغتة المفاجئة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾

والمترفون أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير وها هم يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذًا فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤر مستغيثين مسترحمين (وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور).

ثم ها هم يتلقون الزجر والتأنيب: ﴿ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴾ وإذا المشهد حاضر وهم يتلقون الزجر والتأنيب والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ .

فتتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه أو مكروه تجانبونه مستكبرين عن الإذعان للحق ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمركم حيث تتناولون الرسول ﷺ وما جاء به بكلمات السوء.

ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه وهم يجأرون طالبين الغوث فيذكرهم بسمرهم الفاحش وهجرهم القبيح وكأنما هو واقع اللحظة وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد يوم القيامة كأنها واقع مشهود.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٢٥٧).

والمشركـون في تهجـمهم على رسول الله ﷺ وعلى القـرآن في نواديهم وفي سمرهم يمثلون الكبرياء الجاهلة التي لا تدرك قيمة الحق لأنهـا مطموسة البصيرة عمياء فتتخذ منه مادة للسخرية والهـزاء والاتهام، ومثل هؤلاء في كل زمان وليست جاهلية العرب إلا نموذجًا لجاهليات كثيرة خلت في الزمان وما تزال تظهر الآن بعد الآن[١].

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ وهم يصرخون باستغاثة ويقال لهم حينئذ: ﴿لا تَجْأَرُوا﴾ فإن الجؤار غـير نافع لكم، ﴿مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ لا تغاثون ولا تمنعون مـنا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة[٢].

وقال القـرطبي في قوله تـعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يضجُّـون ويستـغيـثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور.

وقال الجوهري: الجؤار مثل الخوار، يقال جأر الثور يجأر أي: صاح.

﴿لا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعـون ولا ينفـعكم جـزعـكم أي: إنكم إن تضـرعـتم لم ينفعكم[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٤٧٣، ٢٤٧٤).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٣٦).
(٣) «تفسير القرطبي» (جـ١٢، ص: ٩١-٩٢).

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١١-١٥).

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ وهي صيغة تكثير كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ (سورة الإسراء: ١٧)، وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (سورة الحج: ٤٥).

﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم.

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي: تيقنوا من أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم.

﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي: يفرون هاربين.

﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ هذا تهكم بهم نزرًا أي قيل لهم نزرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أي: مازالت تلك المقولة وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصدًا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا[1].

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ والقصم أشد حركات القطع وجرسها اللفظي يصور معناها ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة فإذا هي مدمرة محطمة . . . ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾، وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها وعند الإنشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى. . . وهذه حقيقة في ذاتها.

فالدمار يحل بالدِّيار والدَّيَّار والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير.

ثم ينظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى ويأس الله يأخذهم وهم كالفئران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود: ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ يسارعون بالخروج من القرية ركضًا وعدوًا وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله كأنما الركض ينجيهم من بأس الله وكأنما هم أسرع عدوًا فلا يلحق بهم حيث يركضون! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ١٧٩).

عندئذ يتلقون التهكم المرير: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ ! لا تركضوا من قريتكم وعودوا إلى متاعكم الهني وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح... عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه؟! وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب. إنما هو التهكم والاستهزاء! عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط، وأنه لا ينفعهم ركض ولا ينقذهم فرار فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولكن لقد فات الأوان. فليقولوا ما يشاءون فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ويا له من حصيد آدمي لا حركة فيه ولا حياة وكان منذ لحظة يموج بالحركة وتضطرب فيه الحياة![1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٣٧١).

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (سورة الفرقان: ١١-١٤).

يخبر الله تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم بالحق بلا حجة ولا دليل منهم.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أي إنما يقول هؤلاء تكذيبًا وعنادًا لا لأنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال.

﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي: أرصدنا.

﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي: عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم، وقال سعيد بن جبير: السعير وادٍ من قيح في جهنم.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي: جهنم.

﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني في مقام الحشر، وقال السدي: من مسيرة مائة عام.

﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي حنقًا عليهم كما قال تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (سورة الملك: ٧-٨). أي: يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«إن العبد يجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف».**

قال مجاهد: ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه وترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: ربِّ لا أسألك اليوم إلا نفسي.

﴿ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: **«مثل الزج في الرمح»** أي: من ضيقه.

﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أي: مكتفين.

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة.

﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ﴾ روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«أول ما يُكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي: يا ثبوراه وينادي: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار فيقول: يا ثبوراه، فيقال لهم، فيقولون: يا ثبورهم لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدًا وادعوا ثبورًا كثيرًا»**(١).

﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحدًا وادعوا ويلاً كثيرًا.

وقال الضحاك: الثبور ولهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار(٢).

بل كذبوا بالساعة، وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال، هذا المدى الذي يصوره التعبير بعيدًا متطاولاً يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ ثم يكشف عن الهول الذي ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة: إنها السعير حاضرة مهيأة: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾.

---

(١)، (٢) انظر «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٣٢١).

والتشخيص - ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية - فن في القرآن يرتفع بالصور وبالمشاهد التي يعرضها إلى حد الإعجاز بما يبث فيها من عنصر الحياة.

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة وقد دبت فيها الحياة! فإذ هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة. تراهم من بعيد! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها وهي تتحرق عليهم وتصعد الزفرات غيظًا منهم وهي تتميز من النقمة وهم إليها في الطريق؟! مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب!.

ثم ها هم أولاء قد وصلوا. فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء. يصارعونها فتصرعهم ويتحامونها فتغلبهم بل ألقوا إليها إلقاء، ألقوا مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل، ألقوا في مكان منها ضيق يزيدهم كربة وضيق ويعجزهم عن التفلت والتململ... ثم ها هم أولاء يائسون من الخلاص مكروبون في السعير، فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ ... فالهلاك اليوم أمنية المتمني والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق... ثم ها هم يسمعون جواب الدعاء. يسمعون تهكمًا ساخرًا مريرًا: ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾، فهلاك واحد لا يجدي شيئًا ولا يكفي شيئًا![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٥٥٤، ٢٥٥٥).

قال الزمخشري: ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصًا كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقول: واثبوراه: أي تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك.

﴿وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم[١].

(١) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٨٤).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

يخبر الله تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق رسول الله ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفًا وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٦).

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلاً: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن.

﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أي: بعد بلوغه إياي.

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ أي: يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٣٢٧).

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها إنما هو يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيمًا.

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ فسلكت طريقه لم أفارقه ولم أضل عنه الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولاً!

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴾ فلانًا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ لقد كان شيطانًا يضل أو كان عونًا للشيطان ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ يقوده إلى مواقف الخذلان ويخذله عند الجد، وفي مواقف الهول والكرب.

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزًا بهذه المشاهد المزلزلة التي تجسم لهم مصيرهم المخيف وتريهم إياه واقعًا مشهودًا، وهم بعد في هذه الأرض يكذبون بلقاء الله ويتطاولون على مقامه دون توقير ويقترحون الاقتراحات المستهترة، والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان[1].

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٥٦٠، ٢٥٦١).

قال تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

(سورة ص: ٣).

يخوِّف الله عزَّ وجلَّ المخالفين والمعـاندين بما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي: من أمة مكذبة.

﴿ فَنَادَوْا ﴾ أي حين جاءهم العـذاب استغاثوا وجـأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شـيئًا كمـا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٢)، أي يهربون: ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٣)، ﴿ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس بحين نزوٍ ولا فرار، ليس بحين مغاث، ونادوا النداء حين لا ينفعهم».

وقال محمد بن كعب في قوله تـعالى: ﴿ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة[1].

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فلعلهم حين يتـملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم وأن يـرجعوا عن شقـاقهم وأن يتمثلوا أنفـسهم في

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٢٦).

موقف أولئك القرون ينادون ويستغيثون وفي الوقت أمامهم فسحة قبل أن ينادوا ويستغيثوا ولات حين مناص ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص![١].

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق.

﴿ فَنَادَوْا ﴾ فدعوا واستغاثوا، وقال الحسن: فنادوا بالتوبة.

﴿ وَلَاتَ ﴾ هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث وبذلك تغير حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان.

﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ولا حين مناص لهم.

﴿ مَنَاصٍ ﴾ والمناص: المنجا والفوت[٢].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٣٠٠٧).

(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص:٣٥٩).

قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ قال ابن مسعود ﵁: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٨)، والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ في عرصات القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (سورة السجدة: ١٢). فإذا دخلوا النار وذاقوا مسَّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم.

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أي: قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعدما كنا أمواتًا ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا.

﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا إلى أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجُّه وتنفيه ولهذا قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي: أنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٢٨).

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو[١].

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وهي كلمة الذليل اليائس البائس... ﴿ رَبَّنَا ﴾ وقد كانوا يكفرون وينكرون. احييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة وإذا نحن أحياء ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا فجئنا إليك وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه، وقد اعترفنا بذنوبنا ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير.

هنا في ظل هذا الموقف البائس ـ يجيبهم بسبب هذا المصير: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل إيمانكم بالشركاء وكفركم بالوحدانية. فالحكم لله العلي الكبير: وهما صفتان تناسبان موقف الحكم. الاستعلاء على كل شيء، والكبر فوق كل شيء في موقف الفصل الأخير[٢].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٧٣).
(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٧٢).

قال تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (سورة غافر: ٣٢-٣٣).

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك قال بعضهم لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضًا، وقال آخرون: ينادى كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار.

وقيل سمي بذلك لمناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤).

ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٠).

ولمناداة أهل الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف.

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي: ذاهبين هاربين ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (سورة القيامة: ١١-١٢)، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي: ما لكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره[1].

يقول سيد قطب: . . . ثم يطرق الله قلوب الظالمين طرقة أخرى وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله يوم القيامة يوم التناد: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٧٩).

تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ تُلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك وتصور يوم زحام وخصام، وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم أو محاولتهم الفرار ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار، وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ... تلميحًا بأن الهدى هدى الله وأن من أضله الله فلا هادي له. والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال(1).

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٠).

قال تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (سورة الحج: ١٩-٢٢).

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ روى البخاري أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **«انا اول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، وهم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»**[١].

فالذين آمنوا يريدون نصرة دين الله عزَّ وجلَّ والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وإظهار الباطل.

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من النار.

قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي.

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ أي: إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء، وقيل: تذوب جلودهم وتتساقط.

قال رسول الله ﷺ: **«إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»**[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

قال عبد الله بن السري: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه.

فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: **«لو أن مقمعًا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض»**(١).

وقال رسول الله ﷺ: **«لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»**(٢)، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٠)، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً(٣).

قال سيد قطب: هذه ثياب من النار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس، وهذه سياط من حديد أحمته النار، وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا ﴿غَمٍّ﴾ وها هم يردون بعنف ويسمعون التأنيب: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف(٤).

---

(١)، (٢) رواهما أحمد.
(٣) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٢١٨-٢١٩).
(٤) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص:٢٤١٥).

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة السجدة: ٢٠-٢١).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي: خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾.

قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ويقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه.

وقال البراء بن عازب: بل هو عذاب القبر.

وقال أبي بن كعب: هو المضمار والدخان والبطشة واللزام[1].

يقول سيد قطب: وما يستوي المؤمنون والفاسقون في طبيعة ولا شعور ولا سلوك حتى يستووا في الجزاء في الدنيا وفي الآخرة سواء. والمؤمنون مستقيموا الفطرة متجهون إلى الله عاملون على منهاجه القويم، والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون في الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق على نهج الله للحياة وقانونه

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٤٧٨).

الأصيل، فـلا عجب إذن أن يختـلف طريق المؤمنين والفاسقـين في الآخرة وأن يلقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ التي تؤويهم وتضممهم ﴿ نُزُلاً ﴾، ينزلون فيـه جزاءً ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السجدة: ١٩).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ يصيرون إليهـا ويأوون، ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد!

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ وهو مشهد فيـه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فهو التـقريع زيادة على الدفع والتعذيب.

ذلك مصير الفاسقين في الآخرة وليـسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد، فالله يتوعدهم بالعذاب في هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٨١٣).

المطلب السادس

طلب التخفيف من العذاب

المطلب السادس

التخفيف من العذاب

قال رسول الله ﷺ: «إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفًا، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»[2].

قال المحاسبي: يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمهم الصِّغار بعد عتوهم، والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه، ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام.

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه الترمذي والبيهقي.

فيـا هول صوت انشقاقـها في سمعـهم، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيـامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (سورة الرحمن:٣٧)، وقال: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (سورة المعارج:٨-٩) أي: كالصـوف المنفوش وهو أضعف الصوف، وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها.

فتوهـم انحدارهم من السماء لعظم أجـسامهم وكثـرة أخطارهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم من خـوف ربهم، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخـلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فـأخذوا مصافهم محدقين بالخـلائق منكسة رؤوسهم لعظم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ونكسـوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم وكذلك ملائكة كل سمـاء إلى السماء السـابعة، قد أضـعف أهل كل سماء على أهل السـماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصـوات، حتى وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع.

كسيت الشـمس حر عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قـوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربة وأقلقته.

وقد ازدحـمت الأمم وتضايقت ودفع بعضهـا بعضًا واخـتلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجـتمع عليـهم في مقامـهم حر الشمس مع وهج أنفـاسهم وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبـهم ومنازلهم عند ربهم من السـعادة والشـقاء، فمنهم مـن يبلغ العرق منكبـيه وحقويه ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من ألجمه العرق فكاد يغيب فيه[1].

---

(١) «التذكرة» (ص: ٢٨٢).

فتوهم نفسك يا أخي وأنت بين يدي منكر ونكير وأصواتهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف، وأنيابهما كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههما ومناخرهما ومسامعهما، يكسحان الأرض بأشعارهما، ويحفران الأرض بأظفارهما، مع كل واحد منهما عود من حديد لو اجتمع عليه مَنْ في الأرض ما حركوه، وتخيل نفسك وقد وضعت في القبر وحيدًا فيقعدانك في قبرك وينتهرانك انتهارة يتقعقع منها عظامك، وتزول أعضاؤك من مفاصلك فتخر مغشيًا عليك، ثم يقعدانك ويقولان لك: إنك في البرزخ فاعقل حالك واعرف مكانك، وينتهرانك ثانية ويقولان لك: يا هذا ذهبت عنك الدنيا وأفضيت إلى معادك فأخبرنا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فإن كنت مؤمنًا بالله لقنك الله حجتك فتقول: الله ربي ونبيي محمد وديني الإسلام فينتهرانك عند ذلك انتهارًا يرى أن أوصالك تفرقت وعرقك قد تقطعت فيثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويلقنك الأمان ويدرأ عنك الفزع فلا تخافهما، فإذا فعل الله بك ذلك استأنست إليهما فيقولان لك: صدقت وبررت أقر الله عينك وثبتك، أبشر بالجنة وبكرامة الله، فيتسع عليك قبرك مد بصرك ويفتحان لك بابين من الجنة فيدخل عليك من روح الجنة وطيب ريحها ونضرتها في قبرك ما تعرف به كرامة الله تعالى لك وإن كنت غير ذلك فلك نقيض النعيم والتثبيت ولا تلومن إلا نفسك!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (سورة غافر: ٤٩-٥٠).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨). سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا الله لهم أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم ادعوا لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود صلاحكم ونحن منكم براء ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب(١).

قال سيد قطب: وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أنه لا ملجأ من الله إلا إليه اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ إنهم يستشفعون حراس جهنم ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٨٣).

﴿يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ . . . يومًا، يومًا فقط، يومًا يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابًا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ وفي سؤاله وفي جوابه ما يغني عن كل حوار وعندئذ نقض الخزنة أيديهم منهم وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ إن كان الدعاء بغير من حالكم شيئًا فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء على سواء[1].

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾؟ إلزام للحجة وتوبيخ وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله بها الدعاء.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة، مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين.

وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الظالم[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٤، ٣٠٨٥).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٤٣١).

قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (سورة الشورى: ٢٢).

﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي: في عرصات القيامة.

﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأين هذا من هذا؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشرب وملبس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ابي طيبة: إن الشرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ قال: فما يدع داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة[1].

قال سيد قطب: يعرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد يوم القيامة يعرضهم خائفين مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون بل يستعجلون

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ١١١).

ويستهترون: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ والتعبير الجميل يجعل إشفاقهم ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ فكأنما هو غول مفزع وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ وكأنه هو القلب بذاته عذابًا لا مخلص منه وهو واقع بهم!.

ونجد في الصفحة المقابلة الأخرى - نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون نجدهم في أمن وعافية ورخاء: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾.

والتعبير كله رخاء يرسم ظلال الرخاء: ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ بلا حدود ولا قيود[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣١٥٣).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٤-٧٨).

لما ذكر الله تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي ساعة واحدة.

﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي: آيسون من كل خير.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ ﴾ وهو خازن النار.

﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ (سورة فاطر: ٣٦)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ (سورة الأعلى: ١١-١٣).

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون».

وقيل: أي لا خروج لكم منها ولا محيد عنها ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أي: كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة[1].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ هو عذاب دائم وفي درجة عصيبة شديدة لا يفتر لحظة ولا يبرد هنيهة ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ولا كوة من رجاء بعيد فهم فيه يائسون قانطون: ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم تتناوح من بعيد في الجو صيحة... صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق.

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ إنها صيحة متناوحة من بُعد سحيق من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين. إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث فهم مبلسون يائسون، إنما يصيحون في طلب الهلاك الهلاك السريع الذي يريح، وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا!...

وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفًا للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسًا أطار صوابها العذاب وأجسامًا تجاوز الألم بها حد الطاقة فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾.

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل وبلا رعاية ولا اهتمام: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء... إنكم ماكثون[2]!

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ١٣٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٢٠٢).

المطلب السابع

طلب سقيا الماء والطعام

المطلب السابع

طلب سقيا الماء والطعام

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٠-٥١).

يخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾

قال السدي: يعني الطعام.

وقال زيد بن اسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم.

وقال سعيد بن جبير: ينادي الرجل أباه وأخاه فيقول له: احترقت فأفض علي من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون: ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها.

وقال ابن عباس ﵄: سألت رسول الله ﷺ: اي الصدقة افضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «افضل الصدقة الماء، ألم تسمع أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله؟».

ثم وصف الله تعالى الكفار بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة.

﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (سورة طه: ٥٢)، وإنما قال هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (سورة التوبة: ٦٧).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر»، أي: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم في النار.

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»(١).

ها نحن أولاء نسمع صوتًا آتيًا من قبل النار ملؤه الرجاء والاستجداء: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب الآخر ملؤه التذكير الأليم المرير: ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ثم إذا صوت البشر يتوارى لينطق رب العزة والجلالة وصاحب الملك والحكم: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٢).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٢٢٤-٢٢٥).
(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٣، ص: ١٢٩٤).

قلت: يا له من موقف ذلة واستخزاء لكل ظالم وطاغية، فبعد أن كانت الأموال المديدة والجنان الوارفة في الدنيا والأنهار الجارية ها هم في الآخرة يعذبون، وبعد هذه النعم يطلبون أقل الأشياء الماء الذي كانوا يعـذبون به عباد الله الصـالحين وكأني الآن أرى فرعون الذي كان يقول لأتباعه وزبانيته: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (سورة الزخرف: ٥١).

وكأني أنظر إليه وهـو يطلب جرعة ماء فبـعد الأنهار والملك العريض يستجدي جرعة ماء ويا ليته ينالها، ولكنها محـرمة عليه، فهل نفعته أنهار الدنيا وهل أغنى عنه ملك مصر؟ كلا!.

وكأني انظر إلى كفار قـريش الذين كتبوا الصحيفة بمقـاطعة بني هاشم وتجويعهم في شعب أبي طالب، وكـأني انظر إليهم وهم رافعوا أيديهم لأصـحاب الجنة ـ الذين كانوا يحرمون الطعام والماء ـ يطلبون منهـم أن يفيضوا عليهم من بعض الماء أو الطعام وكأني بأصحاب الجنة يقولون لهم: أليس هذا مـا كنتم تمنعونه منا في الدنيا وتحرمونه علينا؟ فاليوم نقول لكم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وكأنـي انظر إلى صناديد قريش الذين عـذبوا أصـحاب رسـول الله ﷺ أشد العذاب وأخرجوهم إلى الرمضاء الشـديدة الحر ومنعوهم الماء وإذا طلبوه منهم سكبوه على الأرض ليـزداد عذابهم، فكأني انظر إلـيهم الآن وهم يطلبـون في لهفـة يعلوها الخزي والعار من المسلمين أصـحاب الجنة أن يعطوهم جرعة من الماء فـيردون عليهم: أليس هذا ما كنتم تمنعونـه منا وتعذبونا به؟! فالآن أنتم محرومـون منه ليزداد عذابكم وتتفطر أكبادكم عطشًا لأن الله ﴿ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

المطلب الثامن

طلب النُّور

المطلب الثامن

طلب النـــور

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (سورة الحديد: ١٣-١٤).

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمور الفظيعة وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر.

قال ابو امامة الباهلي: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا ـ ويشير إلى القبر ـ بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موطن آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (سورة النور: ٤٠).

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (سورة النساء: ١٤٢)، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ فما يزال المنافق مغترًا حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار.

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي: الجنة وما فيها.

﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: النار.

والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة يحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات؟.

﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى كنتم معنا.

﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي: مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت.

﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي: الشيطان.

قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً[1].

يقول سيد قطب: ... إن المنافقين والمنافقات في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾

فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف ولكن أنّى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وعاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتًا مجهلاً يناديهم: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ويبدو أنه صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يلتمس من هناك من العمل في الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور!

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٣٠٨-٣٠٩).

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكن لا يمنع الصوت فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم في صعيد واحد؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ كان الأمر كذلك ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ . . . فصرفتموها عن الهدى.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحسنة الحاسمة.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزموا به العزمة الأخيرة.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾ الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وانتهى الأمر.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص: ٣٤٨٦).

من يعمل سوءًا يجزبه

من يعمل سوءًا يجز به

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٢٣).

قال ابن كثير: قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله فأنزل الله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (سورة النساء: ١٢٥).

فأفلج الله - أظهر - حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منا. وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾».**

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر يجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فنكبات الدنيا، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يُشاكها»**[٢].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٦٦).
(٢) «تفسير القرطبي» (جـ٣، ص: ١٩٦٦).

قال البقاعي: ولما كانت أمانيهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي: بالمصائب والأمراض وغيرها عاجلاً إن أريد به الخير وآجلاً إن أريد به الشر، ولما أبدى جزاء المسيء تحذيرًا أولاه أجر المحسن تبشيرًا فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتونًا بلعبه، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ جُزْ على قبر الصديق وتلمح آثار الرفيق يخبرك عن حسنه الأنيق أنه استلب بكف التمزيق هذا لحده وأنت غدًا به... ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

كم نُهي عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها؟! هذا ركنه القويم قد وَهَى وها أنت في سلبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

أين من عتا وظلم ولقى الناس منه الألم؟! اقتطعه الردى اقتطاع الجلم فما نفعه ما جمع لا والله لم يدفع عنه عزُّ منصبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

بات في لحده أسيرًا لا يملك من الدنيا نقيرًا، بل عاد بوزر ذنبه عقيرًا، وأصبح من ماله فقيرًا على عز نسبه وكثرة نشبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

اللذات تفنى عن قليل وتمرُّ، وآخر الهوى الحلو مر، وليس في الدنيا شيء يَسُر إلا يغر ويضر، ثم يخلو ذو الذلل بمكتسبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة، والحساب يأتي على الذرة، وخاتمة كأس اللذات مُرة، والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

تقوم في حشرك ذليلاً، وتبكي على الذنوب طويلاً، وتحمل على ظهرك وزرًا ثقيلاً، والويل للعاصي من قبيح منقلبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

يجمع الناس كلهم في صعيد، وينقسمون إلى شقي وسعيد، فقوم قد حل بهم الوعيد، وقوم قيامتهم نزهة وعيد، وكل عامل يغترف من مشربه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غدًا غبَّ أفعالك، وقد قصدنا إصلاح حالك فإن كنت متيقظًا فذلك وإن كنت نائمًا فانتبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[1].

يقول سيد قطب: . . . ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني، إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف وقانون لا يحابي، قانون تستوي أمامه الأمم، فليس أحد يمت إلى الله ـ سبحانه ـ بنسب ولا صهر، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ويعطل لحسابه القانون، إن صاحب السوء مجزي بالسوء، وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة، ولا محاباة في هذه ولا ممارقة[2].

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ١، ص: ٦٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص: ٧٦٢).

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٩).

قال ابن كثير: والمعنى: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم ببعضهم من بعض جزاء على ظلمهم وبغيهم[1].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: هو من قبيل قوله: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ (سورة النساء: ١١٥). أي نلزمه ما ألزمه نفسه.

قال المفسرون: يجوز أن يكون معنى: ﴿ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض أي: نسلط بعضهم على بعض، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمون مسلطين على المشركين والمشركون ظالمون، فكل يظلم بمقدار سلطانه، والمراد بالظالمين في الآية المشركون.

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أن الله سلط على الظالم من يظلمه وقد تأولها على ذلك عبد الله بن الزبير أيام دعوته بمكة، فإنه لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق بعد أن خرج عمرو عليه، صعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزرقاء ـ يعني عبد الملك بن مروان، لأنه كان أزرق العينين ـ قد قتل لطيم الشيطان ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ١٨٠).

ومن أجل ذلك قيل: إن لم يقلع الظالم عن ظلمه سُلط عليه ظالم آخر - وإن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم، وقد قيل: وما ظالم إلا سيُبلى بظالم[(١)].

قال البقاعي: ولَّى الكفرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس وسلطهم عليهم، هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل بين الأشكال والأوصاف الباطنة والخصال، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال بما كانوا بجبلاتهم يكسبون، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها، يجتمعون وينقاد بعضهم لبعض حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها فيظلم بعضهم بعضًا ويهلك بعضهم بعضًا، يولى بعض الظلمة بعضًا ليهنهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال ورديء الخلال وغث الخصال فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال[(٢)].

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٨، ص: ٧٣-٧٤).
(٢) «نظم الدرر» (جـ٧، ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال تعالى: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

قال القرطبي: هل تجزون إلا جزاء أعمالكم.

ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلا ما كانوا يعملون، فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم، وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة[١].

﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم، ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ!: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

فقد تنكبوا الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم، فهم يجزون به كبًّا لهذه الوجوه في النار، وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار[٢].

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٢، ص:٥٣).
(٢) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٦٦٩).

قال تعالى: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (سورة فاطر: ٤٣).

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله.

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله.

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال رسول الله ﷺ: **«إياك ومكر السيء فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولهم من الله طالب»**.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسلهم ومخالفتهم أمر الله عزّ وجلّ.

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أي: لا تغيير ولا تبديل بل هي جارية كذلك في كل مكذب.

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أي: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ (سورة الرعد: ١١)، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد(١).

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله، يعني: بالذين يمكرونه وإنما عنى أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم(٢).

(١) «تفسير ابن كثير».
(٢) «تفسير الطبري» (جـ١٠، ص: ١٤٦).

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم ببدر.

وعن ابن عباس أن كعبًا قال له: إني أجد في التوراة من حفر لأخيه حفرةً وقع فيها فقال ابن عباس: فإني أوجدك في القرآن ذلك قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

وفي المثل العربي: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا.

وقال بعض الحكماء:

يا أيها الظالم في فعله *** والظلم مردود على من ظلم
إلى متى وحتى متى *** تحصي المصائب وتنس النعم[١]

ولهذا قيل في المثل: وما ظالم إلا سيبلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكل شيء آفةٌ من جنسه *** حتى الحديد سطا عليه المبرَدُ

ومن كلام عامة أهل تونس: يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك.

فيكون موقع قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله ﷺ مكرهم ويحيق ضر مكرهم بهم.

وقال: المعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ولا يترك عقاب الجاني، وفي هذا المعنى قول الحكماء: ما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف[٢].

---

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٨، ص:٥٥٤١).
(٢) «التحرير والتنوير» (جـ٢٢، ص:٣٣٥).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فما يصيب مكرهم السيء أحدًا إلا أنفسهم وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم وهو معروف لهم، وإلا أن تقضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩٤٩).

قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (سورة هود: ١٠١-١٠٢).

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[(١)].

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٩).

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الانعام: ٤٥).

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت: ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٥).

فالله لا يظلم الناس شيئًا في دنياهم، وإنما يؤاخذهم بظلمهم ولا يظلمهم في الآخرة وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٦-٧٧).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد[(٢)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ١٣٥).

يقول سيد قطب: كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين[١].

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (سورة الصافات: ٢٢-٢٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٣).

قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠).

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: ٤٤).

أي: هلاكًا وفسادًا لهم وبعدًا من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية[٢].

قال سيد قطب: بعدًا لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٢٠٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٤٥٧).
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ١٨٧٩).

قال تعالى: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٤٩).

وهذا الكمال عدل، والنفي هنا لإثبات كمال الضد، فحكم الله بين عباده يوم القيامة ووزنه لأعمالهم لا جور فيه.

﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

وعن عبد الله بن أنيس قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يحشر الله عزَّ وجلَّ الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة غرلا بُهْمًا»، قلت: وما بُهْمًا؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نأتي الله عزَّ وجلَّ حفاةً عراةً غرلاً بُهْمًا؟ قال: «الحسنات والسيئات»**[1].

وقال عثمان بن عفان: قال رسول الله ﷺ: **«إن الجمَّاء ليقتص لها من القرناء يوم القيامة»**[2].

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٩٠).

وقال عزَّ وجلَّ على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة هود: ٥٦).

فقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مثل قول رسول الله ﷺ: **«عدلٌ فيَّ قضاؤك»**.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (سورة النساء: ٤٠).

يخبر الله تعالى: أنه لا يظلم أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«فيقول الله عزَّ وجلَّ: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار»**، وفي لفظ: **«ادنى ادنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقًا كثيرًا»**، ثم يقول أبو سعيد اقرأوا إن شئتم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ (سورة يونس: ٤٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة يس: ٥٤).

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٨١). ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف مُنتفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ.

(١) رواه البخاري ومسلم/ «تفسير ابن كثير» (جـ١، ص: ٤٩٧).

﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٣١). فمع ثبوت الظلم لهم إلا أن الله لا يحاسبهم، فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة فالتكليف هنا مُنتفٍ.

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة: كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، فَتُب إلى مولاك من قريب، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول العبد يوم القيامة: يا رب الم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت اناضل»**[1].

وقد انفرد الله عزَّ وجلَّ بالحكم كما انفرد سبحانه بالوحدانية قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (سورة المائدة: ١).

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (سورة الممتحنة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص: ٧٠).

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

وقال تعالى: ﴿ ولا تدعُ مع الله إلهًا آخر لا إله إلاَّ هو كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (سورة القصص: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿ وقال يا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاَّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ (سورة يوسف: ٦٧).

وقال تعالى: ﴿ ونادى نوحٌ ربَّهُ فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحقُّ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ (سورة هود: ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لَّم يؤمنوا فاصبروا حتَّىٰ يحكم اللهُ بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ (سورة الأعراف: ٨٧).

وقال عزَّ من قائل: ﴿ ...فلن أبرح الأرض حتَّىٰ يأذن لي أبي أو يحكم اللهُ لي وهو خير الحاكمين ﴾ (سورة يوسف: ٨٠).

وأخيرًا ..

فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والنقص في أصل الطبيعة كامن ** فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومًا جهولاً!!

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب، وتقبل صالح الأعمال، وأن يرزقني الشهادة في سبيله، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد.

ولمن أراد أن يراسلني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله امرءً أهدى إليَّ عيوبي:

- جمهورية مصر العربية، محافظة البحيرة - مركز إيتاي البارود - عزبة الحكر - د/ رجب محمود إبراهيم بخيت.

- وعبر الهاتف: ٠٤٥/٤٣٣٩٥٩.

- وعبر البريد الإلكتروني:
ragab mahmod@hotmail.com

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه

رجب محمود ابراهيم بخيت

الفهرس

الفهرس

تم بحمد الله

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

التخويف من النار

والتعريف بحال دار البوار

للحافظ ابن رجب الحنبلي

(٧٣٦-٧٩٥هـ)

حققه وخرج أحاديثه

أبو أنس حلمي بن محمد بن إسماعيل الرشيدي

دار القمة

لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلات

فاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الطُّرُقُ الحِسَانُ

لِمُكَفِّرَاتِ ذُنُوبِ الإِنْسَانِ

تأليف شيخ المحدثين في عصره

ابن رجب الحنبلي

المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

تحقيق أبو أنس

عادل بن سعد بن محمد مطاوع

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
اسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلات
ت: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢